

جدلية الحكاية والعنف في ألف ليلة وليلة

هالة مهدي الجموسي

تونس

المقدمة: الإنسان والعنف أو العنف الإنسانيّ

العنف مسألة قديمة متجددة في الفكر الإنساني، وقد اتخذ أشكالاً متعددة بدءاً من أول معركة بشرية ورد ذكرها في الكتب المقدسة. فقد ورد في الكتاب أنّ قابيل كان عاملاً بالأرض أما هايل فكان راعياً للغنم، وفي يوم قررا أن يعبدا الله فقدا قرابين. يقول الكتاب: "وحدث بعد أيام أن قاين قدم من أثمار الأرض قرباناً للرب، وقدم هايل أيضاً من أبكار غنمه من سماتها، فنظر الرب إلى هايل وقربانه، ولكن إلى قاين وقربانه لم ينظر، فاغتاظ قاين جداً وسقط وجهه(1)، ولم ينظر الرب إلى قربان قابيل لأنه كان مخالفاً لما كان يتطلبه وهو الذبيحة الدموية أما هايل فقد فعل. يقول الكتاب: بالإيمان قدم هايل لله ذبيحة أفضل من قابيل. فبه شهد له أنه بارٌّ إذ شهد الله لقرابينه(2)، حيث قابيل ادعى إيمانه بالرب ولكنه لم يفعل. لم يقبل الرب قربان قابيل فأغتاظ قابيل جداً وسقط وجهه(3). فقام على أخيه هايل في الحقل وقتله، فقال الرب: قابيل أين هايل أخوك؟ فقال لا أعلم؛ أحارس أنا لأخي. فقال: ماذا فعلت؟ صوت دم أخيك صارخ من الأرض. فالآن، ملعون أنت من الأرض التي فتحت فاهاً لتقبل دم أخيك من يدك. متى عملت الأرض لا تعود تعطيك قوتها. تأمهاً وهارباً تكون في الأرض(4).

أمّا في القرآن فقد وردت قصة قابيل وهايل في قوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ

مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِي إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ
 الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ
 الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ
 فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُؤَارِي سَوْءَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ
 فَأُوَارِي سَوْءَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ (5)

ومن هذه القصة تواترت القصص التي صورت العنف وذلك في الكتب الدينية
 والتاريخية والسياسية والاجتماعية وحتى الشعبية، فصار العنف يتخذ صوراً مختلفة
 ومبررات متعددة، بعضها ديني وبعضها أخلاقي وبعضها سياسي وبعضها مرضي... والعنف
 يصبه في الظاهر الأشد قوة على الأقل قوة، لكنه في الواقع ناتج عن ضعف الحجّة العقلية
 عند مواجهة الأمور التي تظهر معقدة للقائم به.

فالعنف من هذا المنظور ظاهرة ملازمة للحياة الإنسانية، ولها تاريخ كما للإنسان تاريخ.
 وتظهر أشكال متعددة ومتنوعة للعنف في السلوك الإنساني يصعب إرجاعها - من أجل
 فهمها- إلى عامل واحد، وذلك بالنظر إلى اختلاف مكوناتها وشروط حدوثها، وتنوع
 الآثار الناجمة عنها من مستوى إلى آخر. وسنحاول في هذا المقال أن نبث في جدلية
 الحكاية والعنف في كتاب ألف ليلة وليلة من خلال المحاور التالية.

1- الموت العنيف في ألف ليلة وليلة: نظرة تأويلية:

بالنظر إلى إشكالية العنف في النصوص الأدبية، فإننا نراها مجسدة في أغلب
 النصوص إن لم نقل كلها قديمها وحديثها. فالعقدة والشخصيات المعقدة والأزمة كلها
 يمكن تأويلها على أنها تصوير لعنف خارجي مسلط على الشخصية. وفي ألف ليلة وليلة يعتبر
 العنف هو المحرك الأساسي لعملية الحكيم، فبتدأ كل ليلة، كان ينتهي بالفعل العنيف -

القتل - لكل عذراء تسوقها الأقدار إلى بلاط شهريار الملك الواقع تحت هيمنة هاجس "الخيانة الزوجية"، ولعل شهرزاد هي الوحيدة التي أرجأت فعل "العنف" - أي القتل -، متبعة مبدأ شهريار في ألف ليلة وليلة، هو: احك حكاية وإلا قتلتك.

وبالعودة إلى سبب العنف/القتل الذي انتهجه الملك شهريار فإننا يمكن أن نلخصه في "الخيانة الزوجية". يقول المؤلف بعد أن تحدث عن خيانة الزوجة للملك شهريار وخيانة الزوجة للملك شاه زمان وخيانة الصبية للعفريت: "وصار الملك شهريار كلما يأخذ بنتاً بكراً يزيل بكارتها ويقتلها من ليلتها ولم يزل على ذلك مدة ثلاث سنوات فضجت الناس وهربت بناتها ولم يبق في تلك المدينة بنت تتحمل الوطء. ثم إن الملك أمر الوزير أن يأتيه بنت على جري عاداته نخرج الوزير وفتش فلم يجد بنتاً فتوجه إلى منزله وهو غضبان مقهور خائف على نفسه من الملك" (6).

من هنا تصبح الخيانة هاجسا مؤرقا يشرع ممارسة العنف في أشد مظاهره وهو القتل. صار بموجبه الملك يتزوج كل ليلة ثم يقتل زوجته في الليلة نفسها خيفة أن تخونه على أساس أن الخيانة متأصلة في المرأة حسب رأيه. فسوء النية صار مشرعا للعنف سواء في ذلك المرأة الخائنة والمرأة العفيفة. فإذا كانت زوجته الأولى خائنة وزوجة أخيه خائنة وحتى العفريت لم يسلم من الخيانة، فالنساء صرن سواسية من وجهة نظر شهريار مما يستوجب قتلهن قبل أن تقعن في فعل الخيانة.

نستنتج إذن أن العنف في قصة شهريار مع النساء صار عقدة نفسية جعلت من الملك المغدور سقّاحا دون أن يطاله العقاب فهو الحاكم والجلاد في نفس الوقت وهنا يمكن الخطر، فالسلطة صارت تشرع القتل دون أن تأخذ بعين الاعتبار قاعدة أن الشاذ

يُحفظ ولا يُقاس عليه من ناحية، وأنّ الخيانة يمكن ألاّ يكون عقابها القتل بل عقاباً آخر يكون مساوياً للفعل.

2- شهرزاد والعنف المؤجّل: شهرزاد -ابنة الوزير- امرأة ليست ككلّ النساء، أبت إلاّ أن تجد منفذا للورطة -ورطة الموت العنيف- للحدّ من جنون الملك. فهي وجدت المخرج من هذا الموت بتأجيله إلى حين عن طريق إيجاد نقطة ضعف الملك التي ستجعله يختار تأجيل القتل ليلة وليلة ثمّ ألف ليلة وليلة. وصفاتها هي التي خوّلت لها ذلك. يقول الكاتب: "وكان الوزير له بنتان ذاتا حسن وجمال وبهاء وقد واعتدال الكبيرة اسمها شهرزاد والصغيرة اسمها دنيازاد وكانت الكبيرة قد قرأت الكتب والتواريخ وسير الملوك المتقدمين وأخبار الأمم الماضيين. قيل أنها جمعت ألف كتاب من كتب التواريخ المتعلقة بالأمم السالفة والملوك الخالية والشعراء"⁽⁷⁾. تحوّلت صورة المرأة هنا من مجرد كونها صورة خارجية ترمز إلى الجمال الجسديّ لتصبح رمزا للثقافة والعلم والقدرة على الجدل، فاكتمت قوّة من صفاتها تضاهي قوّة السلطة. ورغم محاولات والدها الوزير ردعها عن قرارها بالزواج من الملك خوفا عليها من أن يقتلها كما فعل مع الأخريات، إلاّ أنّها أبت إلاّ أن تخوض معركة الزواج العنيف سلاحها في ذلك العلم لا الجسد إذ ظهر بالكاشف أن سلطة الجسد سرعان ما تهاوت أمام سلطة الملك وجبروته نظرا لفقدانه الثقة في جنس النساء قائلة لأبيها: "فإمّا أن أعيش وإمّا أن أموت فداء لبنات المسلمين وسببا لخلاصهنّ من بين يديه... لا بدّ من ذلك..."⁽⁸⁾ مستعينة بأختها الصغرى التي ستكون القادح لإشعال نار الحكايات حين طلبتها لتودّعها حسب زعمها: "بالله عليك يا أختي حدّثينا حديثا نقطع به سهر ليلتنا فقلت -أي شهرزاد-: حباّ وكرامة إن أذن الملك المهذب، فلما سمع ذلك الكلام وكان به قلق وفرح بسماع الحديث"⁽⁹⁾. ولسائل أن يسأل ما السرّ وراء قلق الملك وبين يديه زوجة جديدة كلّ

ليلة؟ أترأه السّام من الزواج أم السّام من القتل أم السّام من الحياة التي أصبحت ممّلة يتكرّر فيها نفس الحدث -العنف- بطريقة صارت تبعث على النفور؟

قادح الحكاية إذن هو حدث جديد سيتسبّب في إزاحة هذا القلق الذي لازم الملك منذ قراره قتل كلّ من سيتزوّجها منذ الليلة الأولى بعد قضاء حاجته منها. فالحكاية ستوقف نزيف الدّماء والحكاية ستثار لجميع النساء والحكاية ستغيّر موقف الملك من جميع النساء. وبين حكاية التاجر مع العفريت التي بدأت بها شهرزاد في الليلة الأولى والتي امتدّت ليلتين، وحكاية معروف الاسكافيّ التي ختمت بها شهرزاد حكاياتها طيلة ألف ليلة وليلة تتواتر الحكايات فتبدأ "الليالي" جميعها بالعبارة الخالدة والمكررة: "قالت بلغني أيها الملك السعيد" وتنتهي بعبارة: "وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح"، وفي هذه المساحة النصيّة تتشكل القصص بين العبارتين فيمتزج فيها السحر بالخرافة والأسطورة بالحكاية الشعبيّة والجنس بالحب. ولا تكمل شهرزاد الحكاية في نفس الليلة -لأنها إن فعلت ذلك يزول القلق من نفسيّة الملك فيقرّر قتلها كما فعل مع غيرها- بل تعتمد إلى إنهاء كلّ قصّة في منتصف الليلة وتبدأ مباشرة في نصفها الثاني بقصّة أخرى لا تنهيا لتجعل الملك متشوّقا لأحداثها. وتواصل شهرزاد الحكاية مدّة ألف ليلة وليلة أنجبت خلالها من الملك ثلاثة ذكور لتنتهي بذلك عاصفة العنف بعفو الملك عنها وتوبته عن قتل النساء ليقينه بعفاف شهرزاد ونقاؤها وطهرها وبأنّ موجب القتل -وهو الخيانة- غير متأصل في الذات البشريّة وأنّ ما ينطبق على هذه لا ينطبق على الأخرى.

3-سلطة الحكاية الليلية: كلّ الحكايات تُسرد ليلا، فليل سلطة تضاهي سلطة الحكاية. فالنهار لإدارة الشؤون والعمل للآخر أمّا الليل فهو لشؤون النفس أو "الأنا" من سمر وسهر وجنس وحكايات (مرتّبة)، ولو سردت شهرزاد قصصها نهارا فحتما كان سيقتلها الملك من

اليوم الأول فهي من ناحية ستلبيه عن إدارة شؤون الدولة، ومن ناحية ثانية لن يكون هناك مخدّر النوم الذي سيوقف عملية القصّ وسيؤجّل الاستماع لبقية كلّ قصة بل سيرجئ الموت لوقت لاحق. فاختيار الليل للقصّ هو اختيار ذكيّ وليس اختياراً اعتباطياً فالحكايات اكتسبت سلطتها من الزمن الذي فيه شكّلت ونُسجت والذي يتواصل إلى حدود الفجر في جملة تتواتر بعد كلّ ليلة "وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح". وهذا الكلام سيقى مباحاً إلى حين اكتمال القصص فيقرّر الملك بعده العفو لا عن شهرزاد فقط التي أصبحت أمّاً لأولاده، بل وأيضاً عن جميع البنات فتتغيّر نظرتهم إليهنّ ويندم عن قرار العنف الذي اتخذته في شأنهنّ ويتوب عن صنيعه فيعلن الهدنة والسلام.

خاتمة:

إنّ الكون الحكائيّ العجيب والغريب في هذه النصوص الليلية في كتاب ألف ليلة وليلة بما يحويه من أمكنة وأزمنة وأحداث متشعبة ومتواترة، وبما يضمّه من خرافات وسحر وشعوذة وحبّ وعشق وجنس وغدر ووفاء وشدة وفرج، وبما يبرزه من ثقافات إسلامية وعربية وفارسية وهندية وسريانية وتركية... كلّ هذا الكون البنائيّ الذي نسجته شخصيّة شهرزاد قد حقّق للقارئ المتعة، متعة القراءة والتشوّق والتعرّف والاكتشاف، وحقّق للشخصيّة الرئيسيّة -أي شهرزاد- الخلاص من الموت، فالعالم المتخيّل فاقت سلطته سلطة العالم الواقعيّ مجسّدة في بطش الملك بقراره قتل جميع النساء اللاتي تزوّجهنّ في نفس ليلة الزواج بعد إشباع رغباته الحسيّة، فكانت الحكاية هي السلطة الأقوى التي أزاحت قلق الملك من جهة وأجلت موت شهرزاد في مرحلة أولى إلى أن ألغته جملة وتفصيلاً في مرحلة ثانية من جهة ثانية.

-
- 1- سفر التكوين 3:4-5.
 - 2- سفر التكوين 11:4.
 - 3- سفر التكوين 4:5.
 - 4- سفر التكوين 4:9-12.
 - 5- القرآن الكريم [الآيات](#) 27-31 .
 - 6- ألف ليلة وليلة، المكتبة الثقافية، بيروت/لبنان، 1997، ص 10.
 - 7- ألف ليلة وليلة، ج 1، ص 10.
 - 8- نفسه، ص ص 12/13.
 - 9- نفسه، ص 13
-

صدر حديثا



صدر حديثاً

